الجثمان المطوق

كاتب ياسين

كاتب ياسين

الظاهرة الأولى البارزة فى أدب الشمال الأفريقى هى أنه لا يمكن عزله عن الثقافة الغربية ، كما لا يمكن أيضا اقتلاعه من الأرض الأفريقية الإسلامية .

كان الجزائريون فى ظل الاستعمار الفرنسى يشعرون أنهم عرب ويفخرون بذلك . ومع كل فهم لا يستطيعون أن يعبروا عن ذواتهم باللغة العربية ، وكانوا يدريكون تماماً أن اللغة الفرنسية التى يتحدثون بها ليست لغتهم . وكان الجزائرى أمام أمرين لا ثالث لهما ، فإما أن يظل جاهلا بكل شىء ، وإما أن يعرف كل شىء شريطة أن يدخل المدارس الفرنسية ويتعلم لغة الأعداء . إذن فليتعلم الجزائريون لغة عدوهم ليتخذوا منها ومن ثقافته سلاحاً ضده . وفى ذلك يقول كاتب ياسين :

" إن الأدب الجزائرى المكتوب باللغة الفرنسية أدب مستقل عن اللغة التى يعبر بها ، مخلص من روابطها العاطفية والعنصرية ، فهو يعبر عن وضع معين ، روح أصيلة بها ملامح من حكمة الشعب الجزائرى وعزيمته الثورية المندفعة للقضاء على الأوضاع الاستعمارية الفاسدة ، وإحلال أوضاع جديدة وبناءة محلها . "

الظاهرة الثانية الطاغية فى الأدب الجزائرى أن البطل يلقى الصعاب ويعانى من الظلم والإرهاب ، ولكنه يتغلب عليها جميعا ولو بالموت . لأن

الموت فى هذا الأدب ليس فناء أو نهاية ، وإنما هو استمرار وبداية ، لأن البطل عندما يموت يترك وراءه ذرية من الأبطال ، وهو بموته إنما يلهب الثورة ويلقى عليها الوقود فيضطرم أجيجها .

وكاتب ياسين شاعر وروائى وكاتب مسرحى ، فرض نفسه على الثقافة الفرنسية التى أصبحت تفخر به وتدرجه فى كتب الأدب الفرنسى والقواميس الفرنسية واحدًا من ألمع نجومها.

ومن الطريف الذى يذكر أن والدته كانت تكتب الشعر ولها تجارب فى المسرح . وكانت الأم ، على حد تعبير الابن ، مسرحًا كاملا . وكان هو المتفرج الوحيد ، أو بمعنى أصح المستمع الوحيد لها .

فى يناير عام ١٩٦٣ عرضت فى باريس مسرحية " الجثمان المطوق " بعنوان المرأة المتوحشة .

وفى العام نفسه حصل كاتب ياسين على جائزة " جان أمروش " التى يمنحها مؤتمر ثقافة البحر المتوسط . وفى عام ١٩٦٧ عرضت مسرحية أخرى له بعنوان " الأسلاف يتميزون غضبا " . وفى آخر العام نفسه عرضت مسرحية " مسحوق الذكاء " فى باريس أيضا .

كتب ياسين بعد ذلك ثلاث مسرحيات : " الرجل ذو الحذاء المطاط " (١٩٧٠) ، " محمد ، احمل حقيبتك " (١٩٧١) ،" صوت النساء " (١٩٧٢) ..

الظاهرة الثالثة فى انتاج ياسين (الشعر والرواية والمسرح) هى أنه سيرة ذاتية جماعية ، لا تترجم حياة الكاتب وحده ، وإنما حياة أهله وقومه وأمته بآلامها وآمالها .

المنظر

{حى القصبة ، خلف الأطلال الرومانية . فى طرف الشارع بائع يجلس القرفصاء أمام عربته الفارغة . زقاق يفضى إلى الشارع فى زاوية قائمة. كومة من الجثث تطغى على شقة الجدار. أذرع ورءوس تهتز فى يأس . بعض الجرحى يظهرون ويموتون فى الشارع . فى زاوية التقاء الزقاق بالشارع نور مسلط على الجثث التى تصدر فى بادئ الأمر أنينا شاكيا يتجسم شيئا فشيئا ليصبح صوت إنسان ، صوت " الأخضر" الجريح }

الأخضر : هنا شارع الواندال . إنه أحد شوارع مدينة الجزائر ، أو قسنطين أو سيتيف ، أو جلمة ، أو تونس أو الدار البيضاء . آه ! إن المسافة تعوزنى لكى أعرض فى كل أبعاده شارع المتسولين والعرجان ، لكى أسمع نداءات الشخصيات السائرة فى نومها ، وأشيع نعوش الأطفال ، وأتلقى فى موسيقى المنازل المغلقة جلبة المشاغبين المقتضبة . هنا ولدت ، هنا لازلت أحبو لكى أتعلم الوقوف بالجرح السرى نفسه الذى فات الأوان لأعادة رتقه ،

وأعود إلى النبع الدامى ، إلى أمنا الباقية أبدا ، المادة التى لا تنفد أبدا ، المولدة للدماء والطاقة تارة ، وتارة أخرى مختلطة بالاتقاد الشمسى الذى يحملنى إلى المدينة المضيئة فى قلب الليل النضير ، رجلا قد قتل لسبب غامض فى ظاهره طالما أن موتى لم يؤت ثمرة ، كحبة قمح يابسة سقطت تحت المنجل لكى تتموج عاليا عندما يأتى موعد دراسها القادم وهى تضم الجسم المسحوق إلى ضمير القوة التى تسحقها ، فى انتصار عام ، تعلِّم الضحية فيه جلادها كيف يستعمل السلاح ، ولا يعلم الجلاد أنه هو الذى يكابد ، ولا تعلم الضحية أن المادة تقبع متحصنة فى الدماء التى تجف والشمس التى تشرب .. هنا شارع الوندال ، شارع الأشباح والمجاهدين والصبيان المختتنين والعرائس حديثات الزواج ، هنا شارعنا . لأول مرة أشعر به ينبض كالشريان الوحيد المتدفق والذى أستطيع فيه أن ألفظ أنفاسى الأخيرة دون أن أفقده . إننى لم أعد جسدا وإنما أنا شارع . لابد لى الآن من مدفع لصرعى . وإذا صرعنى المدفع فسأظل ماثلا هنا أيضا وميض نجم يمجد الأطلال . وأى صاروخ بعد ذلك لن ينال مسكنى إلا إذا تخلى طفل ناضج قبل الآوان عن الجاذبية الأرضية ليتبخر معى فى عطر نجم ، فى موكب ودِّى لا يكون الموت فيه سوى لعبة ..

هنا شارع نجمة ، نجمتى ، الشريان الوحيد الذى أريد أن أقضى فيه نحبى . أنه شارع دائم الغروب تفقد فيه المنازل وضاعتها مثل الدماء بمثل عنف الذرة التى توشك على الانفجار .

(سكون ، ثم صوت الأخضر يعود من جديد) .

هنا ترقد فى الظلام الجثث التى لا تريد الشرطة أن تراها . ولكن الظلام شرع فى المسير تحت الضوء الوحيد المنهار ، وكومة الجثث لاتزال على قيد الحياة وقد جالت بها موجة رائعة من الدماء ، كتنين أصابته الصاعقة يجمع قواه لحظة احتضاره وقد أصبح لا يدرى ما إذا كانت النيران ستتلكأ فوق جثته بأسرها أو فوق صدفة واحدة من الصدف الحى الذى يضىء مغارته . هكذا يبقى الجمهور على قيد الحياة بعد أن فقد رأسه فى عملية الإبادة التى تحصنه وتخلصه . هنا ، فى هذا المكان نفسه وأنا صريع فى زقاق مولدى ، يعود إلى فمى طعم مذاق قديم ، ولكنه ليس مذاق المرأة التى أنجبتنى ولا العشيقة التى أحتفظ بعضتها . إنهن سائر الأمهات وسائر الزوجات اللائى أشعر بعناقهن ، يرفع جسدى بعيدا عنى ، وبقى لى فقط صوتى ، صوت الرجل أستبد به كمال الجمع المذكر . أقول نحن وأنزل [illegible] لأبعث الحياة فى الجسد الذى أملكه إلى [illegible] فى انتظار البعث . وحتى أصعد من [illegible]

بعد أن قتل الأخضر ، يلزمنى أن أضيف إلى المد المذكر الجزر الجمع ، حتى تدفعنى الجاذبية القمرية إلى التحليق فوق قبرى على نطاق كاف .. هنا أحصى نفسى ولم أعد أنتظر النهاية . لقد متنا . جملة غريبة . متنا مقتولين . وسرعان ما ستأتى الشرطة لالتقاطنا . أما الآن فإنه يوارينا لأنه لا يجرؤ على عبور الظلام الذى لا تستطيع فيه قوة أن تشتتنا . لقد متنا ، لقد أبدنا دون علم المدينة .. عجوز يتبعها أطفالها كانت أول من رآنا . ولعلها جمعت بعض الرجال الأصحاء الذين انتشروا بيننا مسلحين بالفئوس والعصى ليدفنونا بالقوة .. لقد اقتربوا على أطراف أقدامهم رافعين أسلحتهم فوق رءوسهم وقد راح الأهالى يراقبونهم من داخل منازلهم المظلمة ، موزعين بين الحيرة والرعب لمنظر الأشباح المنحنية على الجثث المكدسة . مذبحة كبيرة كانت قد وقعت ، وطوال الليل كله ، وحتى ضوء الصباح الذى يوقظنى الآن ، ظل الأهالى محبوسين كما لو كانوا يتوقعون مذبحتهم ويتهيئون لها فى عزلتهم مع أنفسهم ، ثم كفت الأشباح أنفسها عن الذهاب والإياب . وجلت القطط الأخيرة عن المكان . والمارة الذين كانوا ينقصون شيئا فشيئا كانوا يجزعون لحشرجاتنا ويتوقفون لحظة فى مكان الاشتباك . ولم تأت أية دورية ليلية لتعكر تأملاتهم العابرة ، لقد شعروا بإحساس جديد نحو المجاهدين الغامضين الذين مازال

موجهم يهدر عند أقدامهم . في هذا الشارع الذى كانوا قد شاهدوه عفنا كئيبا ، حيث مجد مثل هذه المجزرة يأتى فجأة ليطيل الزقاق نحو جولات قادمة .

(نجمة ، متشحة ، تغادر حجرتها نحو الزقاق . تمزق وشاحها وخديها ، وثوبها وتنتحب) .

نجـــمـــة : انظروا إلى الصدر الضرير .
بعيدا عن الحبيب المفطوم .
لن ينضج أبدا .
ذلك الثدى الذى سوده الفراق .
لن يستطيع بعد الآن أى فم أن ينال لبنى .
إن الأخضر ينام مع غيرى .
لقد حذرتمونى .
ولقد حلمت بالإعدام رميا بالرصاص .
ولكن كان من المفروض أن يعود عند الغروب .
وكان من المفروض أن أخفى عنه دموعى وخنجره .
وهأنذى محكوم على بليل الوحدة .
أرملة لن يمسنى بشر أبدا .
زهرة عمياء تبحث عن حبيبها المختار الذى حمل بعيدا .
وسط قرابين قرية النمل التى تتردد على تتويجها .
هكذا هجرنى الأخضر ، النملة الذكر
الذى عبر العطر المتغطرس لمخدعى
ليسقط وسط هذه الكومة من الأجساد المجهولة .

حـــــسن : منـذ أن رحــل الأخضـر ، ونحـن هنـا ، دون أخبـار . لم تتحرك نجمة طوال النهار . والآن تنصرف صامتة تحت جنح الظلام . نعم ، هذا هو شبحها الذى يبتعد على طول الجدار . إننى لم أسمعها وهى تخرج .

مــصطفى : **(وقد نُشل فجأة من غفوته)** نجمة ! لا يجب أن نتركها تذهب . نادها .

لا تنس أن الأخضر تركها هنا ، إنه حتى إذا كان لم يخطرنا بأنها ستظل تحت حمايتنا .. انظر إليها وهى تتخطى الموتى . لا الذهول ولا الخوف يثقل مشيتها . هاهى ذى تقف أمام الزقاق المشئوم . أن وشاحها يتطاير فى الليل . إن الناظر ليظنها قاربا سكنت حركته بعد أن انقلب ليكشف لنا عن الأفق . الحق بها سريعا . ففى غمضة عين قد يغمى عليها . إن أصوب فخ يُنصب للغزالة الشاردة لا يكون فى غالب الأحيان سوى وقفة لها تجعلها فى متناول البندقية .

(حسن خرج متلصصا للقاء شبح نجمة . بعد لحظة إظلام على المسرح، تدخل نجمة ، شاردة ، وشاحها ممزق ، يتبعها حسن من بعيد تجلس فوق مقعد) .

طـهـــار : **(بضحكة مفتعلة)** قهوتك لاتزال ساخنة .. ولكن أخبرينى إلى أين كنت ذاهبة ؟ إلى أهلك ؟ .

مــصطفى : دعها تشرب . إنها بلا عائلة **(مخاطبا نجمة)** ما عليك إلا أن تنتظرى ، فأنت تعرفين الأخضر خيرا منا .

طهــــــار : **(وهو يعيد الكرة)** أن المرء لا يهجر عائلته من أجل مجنون كالأخضر .

حـــــسن : **(حانقا)** أعلم جيدا أيتها الجيفة أنه لولا الصديق الغائب ما كنا فتحنا لك بابنا مطلقا . فليس هذا من أجل شعرك الأبيض .

طهــــــار : الأخضر ! الأخضر !.. إنني لا أسمع إلا هذا الاسم أليس هو ابني قبل كل شيء ؟..

حـــــسن : ابن أمه : إنني أحدد هذا لك . لماذا تذكر عقمك هذا ؟ أنك لست سوى ثرثار يهذي ويخرف .

[سكون ، ثم ترفع نجمة الفنجان إلى شفتيها وهي تتحدث إلى نفسها بصوت خفيض كما لو كان كلامها نفسه لا يصل إليها) .

نجــــمــــة : لم أكن أسمع وقع أقدام الجنود . ولم ينجد هيامي اليوم أيضا في الأماكن المحظورة التي نزحف فيها غير قادرين على النهش ، بهائم سمرتها إلى الأرض حزمة من العشب منيعة يسيطر علينا وجودها كما لو كان جزاء علينا الكفاح من أجله ، وعدا لابد منه في سبيل الثأر الذي نعده ، دون أن ننبس بكلمة ، ودون قطعة سلاح ، ولكننا على الأقل واثقون أننا سننهزم وفي قلوبنا كبرياء من يشعرون بأنهم قوم لا يهزمون . وما دام الصديق الوحيد قد هلك ، فسأنتظره أكثر من أي وقت مضى . سأطأ التراب والدماء مثل بقرة تعدو نحو المجزرة

باحثة عن وجه شبه مفقود . كم من وجوه عند قدمى ، وكم من أشباح متناثرة فى إثرى ولا أثر للأخضر . إن الأخضر يلزم الصمت غالبا عندما نناديه .

طهار : وأنا سأفقد خير ما فى من قوة وأنا أجرى كالمسكين باحثا عن الملعون : هذا الابن بالتبنى الذى تلومونني على حبه ، أنا الأب الوحيد الذى لم يعرف سواى حتى اللحظة التى سلبتم فيها عقله بكل أفكاركم الجديدة التى لا أدرى من أين استقيتموها .. لقد استحوذ عليه رفاق يجهل أسماءهم فى بعض الأحيان ، وهاهو الآن ضائع ليس فقط بالنسبة لزوج أمه ، وإنما بالنسبة لأمه التى تركها صغيرا ، عند خروجه من المدرسة فى ذلك اليوم الذى اتفقتم فيه على الاستهزاء بالشرطة بعرض راياتكم التى لا تفهم . ومنذ ذلك الحين وأنتم لا تمارسون إلا هذا العمل . لم تعد الشرطة كافية . إنهم الآن يرسلون إليكم جنودا من الجيش . والنتيجة : هذه الجثث للشبان فى الشارع. وهؤلاء أيضا من " الرفاق " الذين نبذتم من أجلهم كل شىء . الكتب المدرسية ، وأدوات العمل ، والمنازل والعائلات لتتجمعوا أيضا ودائما فى انتظار أن يرسلكم رجال الشرطة والجنود لتلحقوا بالجثث المجهولة التى لا تستطيعون حتى دفنها ، فى حين أن أصدقاءكم ، وربما الأخضر أيضا ، يقبعون هنا تحت أبصاركم فى الشارع نفسه الذى كانوا يأتون فيه لحضور اجتماعاتكم ..

مـــصطفى : لقد ولدنا فى هذا الشارع ، كلنا ، وليست الشرطة هى التى ستخرجنا منه . أما بالنسبة للجثث ، فلقد رأى الشارع القديم جثثا غيرها . أنت نفسك أيها العجوز المسكين سيشهد الشارع مرور نعشك ، ونحن جميعا سنمر من هنا . ليس عدد الموتى هو الذى يثقل على شارعنا ، أنه الموت المنعزل ، موت الجبناء والقلقين من أمثالك ، أنتم معشر الآباء المتخلفين ، الذين تخونون أسلافكم . إنكم تظنون أنكم تؤمنون أعماركم المتقدمة بإرسالنا إلى الورش والمدارس التى يطردنا منها دائما أولئك الذين أصبحت سيطرتهم عزيزة عليكم ، إنكم تعجبون بالسطوة والترف وأسلحة المرتزقة التى انتصرت على أجدادنا المشتركين . لم يعد للكفاح معنى فى عيونكم .. وماذا يعنى هذا ، سوى أن نفوسكم ، نفوس الخدم ، قد دفعتكم إلى عار الهزيمة التى تتلذذون فى قبولها ، ودفعتكم إلى تغذية أحلام العبودية على حساب أولادكم اقتداء بمستعمريكم هم أيضا يعتقدون أنهم يحبونكم بسذاجة (**الفاسق دائما ساذج**) ما داموا يعيشون من نشاطكم ويشركونكم فى فحشائهم مع إحساسهم بأنهم هم أيضا آباء معلمون .. ولكنكم ستكونون آخر المخدوعين . أن أولادكم ، على الرغم منكم قد كبروا فى الشارع . لم يكن لديهم وقت ليستعبدوا ، وسرعان ما رأوكم تنفقون مع أحلامكم السعيدة . لن نعمل بعد اليوم من أجل أيام الخدم العتيقة .

طـهــــــار : فى هـذا البلد الشـؤم ، الدماء تسـيل كل عـشرة أعـوام .
لقد رأيت كثيرين من الأغرار المتحمسين مثلكم يتعرضون دائما للهزيمة نفسها . ماذا فعلتم بأعلامكم ضد المدافع الرشاشة ؟
جميع المعارك تخمد بسرعة مثل نشيج الأطفال . منازلنا هدمتها المدافع . فالميليشيات والجيش يأتيان لمساندة الشرطة وهم يضربونكم ويذلونكم ويجبرونكم على العمل ويطلقــون النار على مظاهراتكم الملعــونة . وكل هذا ينعكس على الأبرياء . أمن الممكن أن يعـتـمـد عليكم الأبناء التسعة لكاتب المحكمة ؟ ، ذلك الكاتب الذى أحرق حيا بعد أن سُكب عليه البنزين لأنه راق له أن يحتفظ بجرائدكم ومنشوراتكم .

حــــــسن : يبدو أنك تتلذذ بتوجيه هذا اللوم إلينا .

مــصطفى : دع الغراب ينعق . ليس هو الذى يثير قلقى .. قل لى يا حسن ، هل تتذكر ذلك الشاب الذى عاقبته المحكمة العسكرية بتهمة " إلقاء نظرة مهينة على موظف فى أثناء تأدية وظيفته " .

حــــــسن : نعم ، أتذكر . لقد كان فى زنزانتنا بعد الهروب .
قال لنا : " لماذا نبقى فى هذا البلد ، إذا كان الثأر مستحيلا ؟ "

طـهــــــار : عندئذ غادر معظمكم البلد ، وسافرتم إلى فرنسا ، وأكلتم على مائدة أعدائكم، وتكلمتم لغتهم وارتديتم زيهم مع

أنهم أطلقوا عليكم النيران فى الخفاء وأنتم ترتدونه ، أما أنا ، فقد كنت أشرب وألهو مع النساء ، ولكننى ظللت فى بلدى ، ولذلك فلم أكن جنديا ولا عاملا فى المصانع المشهورة هناك . أننى أستطيع بدورى أن أتهمكم بعدم الوفاء ، إن لم يكن بالخيانة . هاهما عامان قد مضيا منذ عاد الأخضر من باريس ، ولم يأت لزيارتنا مرة واحدة . وأمه تقف كل يوم فى النافذة على أمل أن تراه يمر ، لم أعد أشتهى الشراب والطعام .

حســـــن : الشراب على وجه الخصوص . إن رائحة النبيذ الآن تصيبك باشمئزاز غريب .

طـهـــــار : هذا يحدث لى منذ اعتدت الصلاة . فكرة أخذتها عن تاجر أمين . أنك لا تستطيع أن تتصور معنى أن تبلغ المئذنة فى ملابس ناصعة البياض وجسد طاهر .

[يدخل رسول من الحزب]

الرســـــول : السلام عليكم (**يجلس ويقدم سجائر**) .

طـهـــــار : ما الأخبار ؟

الرســـــول : (**دون أن يلاحظ حركة الارتياب التى يبديها مصطفى**) : الهدوء مطلوب . إنهم يريدون أن يعرفوا مدى قوتنا عن طريق القيام بهجمات جديدة .

حســـــن : سيقولون أن بعض الأوروبيين المسالمين قد هوجموا ..

الرســـــول : لقد اكتشفوا أماكن لقائنا الرئيسة وأصبحت تحت المراقبة . لم يبق إلا أن نختبئ ، ولكن علينا ألا نعرض

أنفسنا للقبض علينا . فإذا اختفى جميع المسئولين مثل الأخضر وكثيرين غيره فسيفقد الحزب عنصره الجوهرى .

حـــــسن : **(مشيرا إلى نجمة الواهنة)** : أننا لم نقرر بعد اعتبار الأخضر مختفيا .

الرســـــول : عليكم أنتم أن تعثروا عليه .

مـــصطفى : كيف نبحث عن الأخضر إذا كانت الأوامر تقضى بأن نظل مختبئين ؟ أننا لا نعرف ما إذا كان بين الضحايا . ألا يخطر ببالكم أن الشرطة قد تركت الجثث فى أماكنها بهدف واحد هو إيقاعنا فى المصيدة ؟

الرســـــول : **(تاركا المقعد)** : ربما **(يخرج)** .

نجـــمـــة : **(وهى تنهض فجأة)** : سأعود لزيارتكم .

طـهـــــار : إنها مجنونة .

حـــــسن : صه !

طـهـــــار : كلٌّ مسيَّر لما كُتب له . لماذا تخرج ؟ كل مسيَّر لما كُتب له .

مـــصطفى : دعها تفعل . يجب عليك أن ترافقها .

[نجمة تخرج ، يتبعها طهار آسفا] .

حـــــسن : أتقول إنها كانت على خلاف مع الأخضر ، صبيحة يوم المظاهرة ، ظروف غريبة . إننى على يقين من أنها تعتقد أنه مات دون فائدة ، لمجرد أنه لم يعد يريد أن يراها . منذ قليل ، عند خروجى لأول مرة ، تساءلت عما إذا كانت لم تر الأخضر طريحًا فى الزقاق . ألا تظن أنها تخدعنا خشية الإفصاح عن آلامها ؟

مـــصطفى : لا شيء تود المرأة أن تنفرد به مثل حدادها .

حــــــسن : ويأسها ، هل ترى أنها تأبى أن تخلطه بيأسنا ؟

مـــصطفى : وعلى فرض أننا نجهـل ما قـد رأته بالتأكيد ، جليا كما رأيناه ، فهى تعتقد أنها تتجنبنا ..

حــــــسن : ... وهى فى الوقت نفسه تكتم الحزن الذى لن تتحمله ، إذا مـا تحدثـنا بطريقة مكشوفة . ولكن كيف هجرها الأخضر ؟

مـــصطفى : لقد قضينا الوقت فى إعداد المظاهرة ، وفى الفجر شرع الأخضر فى إتيان أعمال عظيمة ، كان يريد إغلاق الباب ، وتسريح رجـال المقـاومة والتكفل بأداء المهـمة كلهـا . وأخيرا لم يبق سوانا نحن الثلاثة : الأخضر ، ونجمة ، وأنا . كنا نجـاهد للتغلب على النوم كـمـا لو كنا قـد أحـسسنا بأن هذه المظاهرة لن تنتـهى كـغـيـرها من المظاهرات . كانت نجمة تقف على حدة ، ولكنها لم تكن تبدو غاضبة . كنت وحدى فى بعض الأحيان أقترب منها وأحدثها . وكان الأخضر قد شرع فى الكتابة . وأخيرا نهضت نجمة لفتح الباب ، وانقضَّت الشمس فوق رءوسنا ، بسرعة النحل المتجمع ، وكنا نرتعد تحت لسعاتها الطفيفة ، ونحن لم نزل مثقلين من تعب الليل . كنت أنا ونجمة ، قد اقتربنا من الباب لاستنشاق هواء الربيع ، وظللنا مأخوذين بالفجر وحرارته دون أن نجرؤ على قطع هذا السحر . وإذا بصوت الأخضر يردنا إلى الواقع حين

قال : " لا شيء يدعو للحزن " كانت النافذة مفتوحة . وكانت نجمة مائلة فى نور الشارع وعبير الصباح ، فهمس لها الأخضر مرة أخرى " لا تغضبى " وابتعد وهو يوصينى بتنظيم النوبة والاطمئنان عليها . حينئذ فقط أدركت أنهما خارجان من مشاجرة ؛ من الطريقة التى كانت تنظر بها إليه وهو يرحل بعين قاسية وحزينة .

[عند خروجها تلمح نجمة الأخضر بين الجثث . لقد نهض بمشقة . ثيابه ووجهه ملطخة بالدماء . يترنح فى الشارع كالمجنون . نجمة تظل صامتة محدقة النظر دون أن تقوى على التقدم خطوة واحدة] .

الأخضر : إننى أجد نفسى مرة أخرى فى مدينتنا . إنها تستعيد شكلها فى ناظرى . إننى ما زلت أحرك أعضائى المحطمة ، وشارع الواندال ينتهى أمام عينى كأنه تحت عاصفة ، قبل دقيقة معينة ينهار فيها الليل وسط الأحجار ، فى صدر الحشرات التى ينبشها الريح والجليد حتى الصباح . حينئذ قام حائط ضخم بين المدينة الكبيرة وبينى . إننى أخرج أخيرا من هذا الموت العنيد ومن هذه المدينة الميتة التى أنا مدفون فيها .

[طلقات نارية بعيدة ، غير حقيقية يرددها الصدى] .

فوق شجرة هائمة جاهدت عائلتى الثرية ، الثرية بالدم وبالأصل ، القبيلة ذات الضريح الخالى التى عاشت قبلى فى عطر البن المحمص ، جيراننا لم يعطوا شيئا منه على

الإطلاق ، " لزهرة " تلك الأم التى لا أجرؤ على رؤيتها مرة أخرى دون أن أنقذها من الرجل المتعاجب الذى تزوجها ، فى غياب أبى الحقيقى الذى قضى نحبه فى حادث سيارة ، كان يركبها مع عاهرة ، هذا الأب الذى كانت ميتته الفظيعة هاوية من المهاوى التى ابتلعت بقايا القبيلة ، ذلك الميت الذى لا يذكرنى بأى شىء إلا بقسوة القدر ، ذلك الميت الذى يتركنى مروره العابر بعيدا ، بعيدا للغاية ، سمكة ميتة خلقت بطريقة غير ملموسة وراء أحشاء الأم ، ولدت مرة ثانية عندما خرجت فى عملية الهضم الكئيبة لسمكة القرش التى عبر هيكلها المشرف على الفناء بعد أن اجتاز فكيها الواهنين : وهكذا فإن ميتتى تجتاز ميتة أخرى أبوية قبل الأوان ، ولم أعد أملك سوى زوج أب لتحويل أمى "زهرة" عن لحدى القريب ، ولم أعد أملك سوى الأصدقاء الذين ستذهب إليهم " نجمة " الحبيبة المبعدة . وهأنذا صريع مرتين ، ولكننى وحدى أنهض ، أشبه بالتماثيل التى تبعثها الزلازل ، أزعزع العوالم وأهزها فى نوبات غضب بارقة ضد الدناسة العمياء ، دناسة الزمن ، ودناسة الموت ، ودناسة النكبة التى لا شىء يخلص منها عقولنا الباقية ، إلا ربما اللحظة التى حانت لى أخيرا ، لحظة بلا ديمومة ولا عودة يختبر المرء فيها قوته مع حشود لا حصر لها عند مخافر القدر الأمامية . أوه ! يا لسمكة القرش التى فقدت

سرعتها قرب السابحين المبهورين ، كذلك تكون عبقرية الموتى متخلفة عن تاريخى ، الآن وقد جئت على شاكلة الحجارة أموت فى الشارع ، وقد راح الزمن يضرب الأرض بقدميه ، وقد أعارنى شكلا أخيرا دون أن يقوى على أن يتغير معى أو أن يرفع القناع عنى ، الآن وقد انبرى الزمن ينازع الموت ذاكرتى المبعدة عنهما ، لم يعد هناك توقيت يمكن أن يكون توقيتى ، ودمائى المراقة لن تعرف لها بعد اليوم مقياسا ، ولا رواجا .

[طلقات نارية]

إننا لم ننف بعد من أرضنا ، ولكننا فقط هزمنا فى الشارع ، حيث أنا بمفردى ، وعلى الرغم من السفاحين ، أحبو لا ميتا ولا حيا ، مهملا بلا عناية بواسطة قرار حكم أصدره الربيع ، فى رائحة دغل محطم ، شأن القنفذ الكبير وقد تخلى عن المقاومة ، يتذوق فى وكره ألم الطلقات الضائعة ، وهو يبلل فى هوادة تربة احتضاره الذى ليس إلى نواله من سبيل .

[طلقات نارية]

وحيد وفى ظلى تحوم النداءات الخطيرة لمدينتنا التى هجرت ببسالة ، وقد غزاها كياننا كله ، المدينة الشابة أبدا ، والتى تحتفل بالعيد على مشارف الخرائب .

[طلقات نارية متتابعة تستمر وتنتهى بسكون جديد يلقى فيه الأخضر بهذيانه ، وسينتصب بكل قامته ليلقى ، فى

بطء ، وكلمة كلمــة ، الفقـرة الآتيـة التى يسـتعيد فـيها رشده] .

إننى أسمع ضوضاء الدماء تعيش ، وأعثر على صرخة أمى وقد جاءها المخاض . إننى أسمع القبيلة تعيش تحت ريح السَّموم التى بلغت عروقى ، وأرتفع عند الغروب نحو أشجار الحور العتيقة التى يهتز قوامها ورقة ورقة وفق اكتساح نباتى لا يمكن التصدى له ، اكتساح يذكرنا فى الليل الذى يسير قدما ، بفرسان نوميديين تفرقوا عند المغرب ليجددوا حملاتهم .

[طلقات متتابعة وعدو جياد ، عدو جياد وطلقات متتابعة . سكون يبعث من جديد] .

وأخيرا فلكى أقيم سياجا من هذه الأكداس الرهيبة من الزمن حول القلب المدمر الذى يتلقاها ، فإننى أصبح ، لا عن تصنع ، وإنما عن عناية - أصــبح ذلك الرجل العنيف الذى لم يكف عن التعدى على الأشباح .

[الأخضر يتطلع حوله ، متخليا شيئا فشيئا عن هوسه ، ويستطرد بنوع من السخرية]

إن ثقل الخــزائن مــوجـود فى الأيدى المتــقلصـــة التى تحبسنى فى الجبانة ، ومدينتنا المنهارة لم تعد سوى بهجة للحياة مع الجدران .

[الأخضر يترنح على شفا الجنون فى قهقهة صفراوية] .

نجــــمــــة : (وهى تعدو نحوه) الأخضر !

[ولما كان الأخضر يوشك على الانهيار ، فإن نجمة تسنده . إنها تساعده فى الاتكاء على العربة . البائع ينام نوما عميقا . الأخضر يعود إلى مناقشة نفسه فى هلوسته] .

الأخضـــر : الرجـال المتـروكـون يلقـون فـوقى بأيديهـم المكبلة فى سـلاسل مـهـولة تأتى ، على مـا أرى ، من أجـسـاد تترصدها النتانة ..

نجـمـــة : لا أريد أن أسمع !

الأخضـــر : إننا جميعا فى هذه المدينة التى لا يطيقها الأجانب ، لا نطرد أحدا على الإطلاق . أى فاتح بوسعه أن يطعننا مرة أخرى ويخصب بدوره قبرنا ، وهو يُعلم يتامانا لغته ، وهو مستقر فى أمان مع ذويه دون أن تزعجه احتجاجاتنا ، الاحتجاجات التى تصدر من العالم الآخر . فلا أحد يمكن أن يسمعنا . وليس هذا من عدم الصراخ .. إننا لم نكف عن أن ننادى بكل قلوبنا هذا المنفى الذى نعيشه مكانكم ، فوق قبرنا ، أرضنا السليبة . أمن الممكن أن تكون هذه خديعة ؟

نجـمـــة : (**تغلق فمه بيدها الممدودة**) أنا لا أسمع ! أنا لا أسمع ! .

الأخضـــر : (**وهو يجاهد ليعود وسط الجثث**) : دعينى كروح تقطع آخر روابط الأموات ، أخفى هذه العقول التى تمزق بعضها فى زهور تخالف أوانها فوق أرضها المحرمة ، أوه أيتها الزهرة المضطربة قرب الرحيق المتقيأ ، يا حزمة العقول المظلمة التى اجتازها فى جماعات كل هذا النحل من الرصاص الذى يستقر فى رءوسنا .

نجـــمــــة : لا أريد أن أسمع ! .

الأخـــضـــر : انصرفي ، فلنفترق دون إجهاد قلبينا القاسيين . إن الروح وحدها تكفي لعبور العالم ، مع أننا نادرا ما نتحدث عند النفس الأخير . إننى أصمت . إنك على طرف لسانى ساخنة تماما ، وأنا أجدف فى سكون لكى أبلغك فى سحبة جزر . صدرك كشعب البحر يوقف حركتى . إننى أسبح بالكاد ، بأذرع مقيدة ، نحو نعاس الكهف . والآن آتى لأرد لك الروح . إن الطوفان لم يعد يجذبنى . إننى أفضل على النعاس هبة الكلام ، بشرط أن تسندينى . ولكن شواطئ جسدك ليست سوى مهاو ساحقة . إننى وأنا مصاب بجرح مميت ،أرسو؛ يكفينى أن أرفع صوتى حتى تصيبنى الخيانة.

نجـــمــــة : لقد بحثت عنك فى أعماق الكهوف ، وعرفت فى مصادقة القتلة صيد القنفذ . لقد كنت دائما تفقدنى .

الأخـــضـــر : نعم ، لقد أمضيت أيامى فى خندق ، أرصد أولئك الذين لا يسقطون فى فخاخك . كانوا يسيرون فوق صدرى ، وكنت أنت تتسنمين ، وكنت تموئين عند رؤية شواربهم . فإذا صدر عنى رد فعل ، كان تمردك يجرفنى إلى مساقط جديدة يستغلها كل غريم فيفرض نفسه فى قفصى . وهكذا كان لابد لى أن أقاسمك رذائلك وأن أتخلى حتى عن العذاب .

نجـــمــــة : تكذب . ما هذا العذاب ؟

الأخضر : إن سوء التفاهم هذا يمنحهم كل أنواع الشجاعة . وأنا وحدى كنت أستطيع أن أبدد جهلهم . وكان المنافسون يهيجون ، وهم يبكون في بعض الأحيان فوق لحدى . ولم يكن بوسعى أن أنسل منهم . ولا أن أواسيهم ، أنا الذى كان لا يزال يحمل مخلبك . وفوق ذلك فإن صوتى كان يثقل العبء ، بحيث أن أية لعنة كانت ترفع من قدرك .

نجمة : (حاسمة وشاردة) مجرد أزمة غيرة .

الأخضر : ولكننى لو كنت أبطلت السحر ، لكانوا قد رضوا بأن يرونى أهجر مضجعك الفاتن ، ولأثارونى ضدك . عندئذ كانت تظهر لى قمة العذاب . ولكننى لم أشأ أن أبلغ مستوى ارتفاعك ، إذ أدركت أن الفراغ كان فى النهاية .

نجمة : أنك لم تشأ أبدا أن تتم غزوى . تذكر ذلك الصباح الذى هجرتنى فيه تاركا وراءك سخريات بدلا من الوداع .

الأخضر : فى ذلك الصباح كان الجنود فى المعسكرات ، على أهبة الاستعداد للتدخل، وكان المنظمون عندنا يجهلون ذلك . كنت أعرف فقط أن الشرطة ستأتى آخر الأمر . وكنت أنتظر رجال مكتب النظام ، وكانت الفرق الأولى قد تمت محاصرتها ، والشعب لا يزال يأتى إلى شارع الوندال . كانت لحظة الانتشار فى الشارع الكبير . وفى الليلة السابقة كان رجال الشرطة قد استقروا فى بعض المنازل . كنا جميعا متعبين . ومن إحدى الشرفات ، خرجت

الطلقات جزافا ، كان الجمهور قد ضاقت حلقاته . وكنا نتخذ من كل شيء قذائف ، ولكن لم تكن لدينا أية حماية . ووصل الجنود فأطلقوا النيران بعنف ، فإذا بي على الأرض مع مذاق قديم في فمي ، فاقد السمع ، فاقد الإحساس ، ولكن عيني لا تزالان منفرجتين . ثم شرع الجمهور في الرقص ، ولم تخرج من صدري أية حشرجة ، أو على الأقل لم أسمع حشرجة صدري كما لم أسمع حشرجة الجرحى الآخرين ، فلقد كان هناك رصاص في جسدي وضوضاء في المدينة ، كان يلوح لي بكل بساطة أن الجمهور قد شرع في الرقص . لم يكن هناك ما يدعو إلى الحزن . ومن جهة أخرى ، فقد كنت أحمل بعض السجائر . إن المستنقع الذي كنت أرقد فيه لم أكن أراه .
كان الجو جميلا . لم تكن المظاهرة قد انتهت . كان يبدو لي أن الجنود من عالم آخر . أما رجال الشرطة فقد نسيتهم . ولكن الجمهور كان ينقص . عندئذ شعرت بضعفي .

{لحظة . ظلمات . شبحا الأخضر ونجمة . طلقات نارية . أوامر ، أنات . عويل من الجمهور الذي أسكرته مذبحته نفسها . جلبة . عراك . ضوء . المنصة خالية . البائع ، بمفرده يجلس القرفصاء أمام شجرة البرتقال . الوقت الليل . نجمة ومصطفى وحسن يظهرون ، وهم يختفون من منزل إلى منزل } .

مصطفى : لا داعى للذهاب أبعد من ذلك . لن نعثر عليه .

حسن : لقد اختفى فى أثناء العراك الثانى .

مصطفى : **(بلهجة قاسية)** كان يجب الاعتناء به ، ثم حبسه فى المسكن . ولكن لا نتركه هنا .

نجمة : أنا لم أتركه ! فعندما سمعت طلقات النيران والصراخ ، أخذته من ذراعه . كان متكئا هنا **(نجمة تشير إلى شجرة البرتقال)** توسلت إليه أن يتبعنى . فلم يجب . سمعنا بالقرب منا جماعة من الرجال المسلحين . فتوسلت إليه مرة أخرى ، وصرخت فيه بأن يذهب إلى أى مكان إذا كان لا يستطيع أن يتبعنى . لكنه كان ما يزال يهذى ، وهو يحاول أن يقف على قدميه . وفى هذه اللحظة ابتلعتنى الجماهير التى كانت تفر من الرصاص . وسقطت . ثم نهضت ، وسقطت مرة أخرى . كان الرجال يتطاحنون من حولى ، وهم يقلبوننى فى طريقهم ، كما لو كانت رغبتهم الأخيرة هى أن يسحق بعضهم بعضا فوق جسد امرأة مجهولة .

مصطفى : **(بلهجة أشد قسوة)** نحن نعرف هذا جيدا : حتى تحت الرصاص ، فإن المرأة تجد نفسها فى بؤرة النزاع . بهذه الطريقة فقدت الأخضر . وذات يوم ستفقدين أصدقاءه إذا لم يكن هذا قد حدث فعلا .

حسن : **(ليحول غضب مصطفى)** إن هذا البائع موجود هناك دائما فلا شك أنه قد رأى الأخضر .

البـــــائـع : [**يقتربون من البائع . حسن يهزه دون مراعاة**] .
(**مذعورا**) اللعنة على الكافر الذى أيقظنى . أوه ! عفوا . لقد ظننتكم جنودا .

حــــــسـن : ألم تر الأخضر ؟

البـــــائـع : يوجد فى بلدنا رجال يدعون بهذا الاسم .

حــــــسـن : أنه صديق . الناس جميعا يعرفونه .

مـــصطفى : (**حانقا ، وهو يقترب أكثر**) ليس هذا وقت المزاح ، أخبرنا إذا كنت رأيته.

البـــــائـع : كلا . لم أره .

مـــصطفى : حقا ، أولا تعرف رجالنا ؟ طوال الوقت فى الشارع ولا تعرفهم ؟

البـــــائـع : (**مفزوعا**) أنا لا أعرف سوى عملى وأولادى .

مـــصطفى : ماذا تعمل فى هذا الشارع ؟ ألا تحادث أحدا ؟ .

البـــــائـع : آه ! يا إخوانى ، أنا لا أعمل بالسياسة . فما عسى يفيد هذا ؟

مـــصطفى : هناك من يفيدهم هذا . الشرطة أيضا ، هذا يفيدها .

البـــــائـع : إخوانى ، عندى سبعة من الأبناء . أكسب قوتى بقدر ما أستطيع .
أمن المحظور أن يكسب المرء قوته ؟ .

مـــصطفى : تعتمد على رجال الشرطة ؟ يتركونك تكسب قوتك ، ماذا تعطيهم فى مقابل ذلك ؟ .

حــــــسـن : سأخبرك بما تعطى لهم ، أتحب أن أخبرك به ؟

البـــــائع : (**وقد جن جنونه**) إخواني ، إن عندي سبعة من الأبناء . لو لم يكن الأطفال جياعا لكبروا بسرعة ، ولتحررت البلاد .

مـــصطفى : إذا كنا جميعا مرشدين ، فقد يكون هذا وسيلة للتخلص من الفاقة ؟

نجـــمـــة : فلنتركه . أنه ليس سوى عجوز ضعيف .

مـــصطفى : إذن وأنت نائم ، تقوم بهذه المهنة ، مهنة الكلاب ، (**مصطفى يجلس القرفصاء بالقرب من البائع ويضيق عليه أكثر**) تفكر طبعا في الحاكم ؟ لديك أحلام مليئة بالأنين مثل أنين الكلاب ؟

البـــــائع : (**منبطحا**) سامحوني ، لقد ظننتكم من الأعداء . كل إنسان يخطئ . كان صاحبكم مجروحا .

حـــــسن : (**وهو يقترب من الجهة الأخرى**) إلى أي مكان لجأ ؟

البـــــائع : (**مشيرا إلى نجمة**) هذه المرأة رأته . لقد تحدثا معاً بالقرب من عربتي دون أن يلاحظا أني قريب منهما . ثم كانت المعركة الثانية . لم أر شيئا ، أقسم لكم أني لم أتوان في حزم أمتعتي .

[ظلام . طلقات متصلة من الجونج . ضوء . الكومندان يثرثر مع ضابط آخر ، وهو يشير إلى خريطة أفريقيا ، المعروضة على الشاشة] .

الكومندان : ... انظر إلى تاريخ " نوميديا " . إنها اليوم شمال أفريقيا ، مع فارق بسيط وهو أننا حللنا محل الرومان

في مراكز القيادة . قديما ، لم يكن من السهل هزيمة فرسان " نوميديا " . أما اليوم ، فلدينا الطيران والبلاد مقسمة إلى ثلاثة أجزاء . ولكنها دائما بلد واحد . لن ننجح في ابتلاع سكانها ، حتى بعد أن نقلنا عددا من المستوطنين لم يصل إليه عدد في أي إمبراطورية أفريقية . في تونس والمغرب وهنا أيضا ، الرجال أنفسهم ينقلبون ضدنا . أنهم يعاودون الهجوم متدفقين من القرون الغابرة ، وهم يُقتلون في المعارك ليظهروا من جديد ، نوميديين يلوذون بالفرار ولكنهم يوحدون صفوفهم للقيام بهجمات أخرى ...

[الضوء ينتقل جهة الأخضر المغطى بالتراب والكدمات ، في مواجهة مارجريت] .

مارجريت : هل هوجمت ؟

الأخضر : من العسير أن نقول ذلك .

مارجريت : لقد " فرملت " بالضبط أمام جسدك . كنت وحدي إلى عجلة القيادة . لك حظ ... لقد " فرملت " في الوقت المناسب تماما . لقد تحركت أنت وسمعت أنا بعض الكلمات الفرنسية ...

الأخضر : لابد أن الأمر اختلط عليك . فقد كان هناك جرحى آخرون .

مارجريت : كلا ، أنا متأكدة . كلماتك كانت غير مفهومة . لكنها كانت بالفرنسية .

الأخـــضـــر : **(خجلا)** هذه نتيجة ذهاب المرء إلى المدرسة ...

مـــارجـــريت : ماذا تقول ؟

الأخـــضـــر : **(مستدركا)** لا شىء .

مـــارجـــريت : لقـد تجـشـمت العناء فى نقـلك . لحـسـن الحظ أنى ممرضة . أحب أن أعالج الناس لكنها ليست مهنتى . والدى لا يريد لى أن أعمل . يقـول أن مرتبه يكفى . فى باريس كنت أقوم أيضا ببعض الخدمات الطبية . أما هنا فالوضع بالغ الدناءة ... المهم أننى أوقفت النزيف .

الأخـــضـــر : وأنا اشعر بتحسن .

مـــارجـــريت : إذا سمحت ، فإنى سأخطر والدى وسيطلب إحضار عربة إسعاف .

الأخـــضـــر : تعتقدين أن والدك ...

مـــارجـــريت : إنه ضابط .

[الأخضر يذعر . مارجريت تحدق فيه باهتمام قبل أن تستطرد بصوت خفيض] .

مـــارجـــريت : أنت أجنبى ؟ كـلا . أنت عربى . أرى ذلك الآن ، وأنا أنظـر إليك من قريب . يبدو أن دمك عربى .

الأخـــضـــر : نعم ، دمى عربى .

مـــارجـــريت : **(وهى تفكر)** غريب ... الآخرون ، لا أستطيع أن أراهم . أنهم قذرون .

يظنهم الناظر قـمـلا . أنت لست مـثلهم . تمدد فـوق سريرى .

الأخـــضــــر : سأنام عند رفاقى .

مــارجـريت : سأتركك . تنام فوق سريرى .

[مارجريت تخرج . تدخل نجمة] .

نجـــمــــة : سـامحنى . أصدقاؤك يبحثون عنك . لقد رآك البعض تنزل هنا .

الأخـــضــــر : أنت أيضا ، تراقبيننى ؟ هل أنا عبد أو طفل ؟

نجـــمــــة : من بعيد جدا تبعتك . ليست أنا التى ستقوم على حراستك . لا تزال ترقد غارقا فى نظرتك أنت ، لو صح أن نسمى العنكبوت الذى يجرى فوق جبينك نظرة . إنى أقتفى أثرك بينما أنت تعمينى وتضربنى . أن روحك القاسية تثقلنى ، وأنا أرتدى الحداد ، ولكنك لم تمت إلا من أجلى .

الأخـــضــــر : أبدا لا نفقده .

ذلك الحبيب الذى
تأتى لفحة جديدة
فتواريه التراب فى غير وقته
محروثة بعيدا عن خطوط حقلى
أقدم إلى نيرك الوحدة
وغيابى سيجعل هجرانك يزدهر .

نجـــمــــة : فى احشاء ذاتى
ألقيت بذرتى بلا عودة
وها أنت ذا تنبذ

سحابة تفجرت كان ماؤها منيتى

الأخـــضـــر : وكجوال على ظهره
أقوم بالتسميد مختلطا بك
وأغمرك بفم مخيط
مفعمًا بسحابك الممطر
وكجوال على ظهره
أقوم بالتسميد مختلطا بك
أيتها الرفيقة التى لا يمكن التنبؤ بها ، أيتها الأرض التى
أرهقها قمحها اليابس الذى ألقى على الأرض عنوة .

نجـــمـــة : أنا التى رأتك والمنجل يقطعك .

الأخـــضـــر : ولكننى سأخرج من صومعة الغلال
ولن تعرفى بعد ذلك .
أى هجمة قديمة تغطيك
وسينسى
عريك
الشتوى !
أننى أسحب روحى إلى الموت الذى ينسى نفسه
فلتخلع ثياب عرسها
تلك الساحرة التى هى القدر
ولتهلك عذراء حول النيران !
ولتظهر دون جدوى
سقوطها الهادر

في أعماق المغارات العرسية !
الحب ، والموت والروح :
ندم طمره الأسلاف
الأسلاف الذين يفضحون حياتهم
كوباء استعر في زمن القحط
في معسكر عشاق مغمورين لا يستطيعون أن يتعرفوا
على أنفسهم دون أن يحرقوا آخر عبراتهم في صراع
تشعر فيه روح الخصم أنها وحيدة ! .

[يدخل حسن ومصطفى] .

مـــصطفى : (**مشيرا إلى الأخضر**) هاهو ذا حي ، بل ويثرثر .

الأخــضـــر : انتظر . .

[تدخل " مارجريت " ، مذعورة أمام المجاهدين] .

نجـــمـــة : لا تخشىْ شيئا . سننصرف نحن .

الأخــضــر : (**متأثرا**) إيه كلا ! لنبق معا (**مشيرا إلى مارجريت**)
إنها من باريس .
إن المرء وهو في بيتها يشعر كأنه قد اجتاز البحر .

مــارجــريت : سأغلق الباب .

نجـــمـــة : (**متألمة**) لا تحملي نفسك كل هذا العناء .

مـــصطفى : (**بصوت من أتى ذنبا**) العناء قد وقع .

[خمسة كشافاتٌ تنتشر فوق المنصة . الكشاف الأول يظهر بجلاء وجه الأخضر المتورم الذى تحدق فيه مارجريت ، وهى مأخوذة ، في نور الكشاف الثاني ،

كـاشـفـة عن هذا الحب الجـديد الذى تفـتح دون علم المصاب. الكشاف الثالث يبين الإغراء العاجز لنجمة التى تبـدد نظرتهـا المريرة رقـة الغـريمـة . الكشـاف الرابع يتـأرجح مع النظرة المزدوجة التى ينقلهـا مـصطفى بين نجمة والأخضر ، الأخضر الذى بدأ يكره ، ونجمة التى تدفعه إلى اليأس الكامل . الكشاف الخامس ينطفئ أولا على حسن ، المنزوى قليلا ، منفردا ومتضـامنا فى الوقت نفسه . مـصطفى ومـارجريت ونجمة يدخلون بالتوالى فى الظلام . الكشاف الأخير ينطفئ على شفتى الأخضر فى اللحظة التى يبدأ فيها الكلام } .

الأخــضــر : (**رافعا الكلفة**) هل لديك شــراب ؟ أعطنى أى شىء . ستشـربون معنا .
سيتم ذلك بلا ضغينة .

[مارجريت تحضر شرابا . يشربون فى صحة الأخضر]

حــــسـن : جراحك ؟

الأخــضــر : كلها جديدة .

مــارجــريت : لقد نزف كثيرا .

نجـــمـــة : ستملئينه كالقربة .

مــصطفى : (**غيورا**) لقـد أصبح فـاقـد الإحسـاس ، أشبـه بتلك الأشـجار التى تمزقها مناقير اللقالق حتى العظام .

الأخــضــر : (**وهـو يميـل فجأة ناحية مصطفى**) اللقـلاقـة نفسـها (**مشـيرا إلى نجمة**) تضربك بمنقارها . ولكنى مرتاح .

نحن إخوان . أن الغربان لا يمتهن بعضها البعض ...
والآن أخبرنى ، أين رجالنا ؟

[مصطفى ، مغموما ، لا يجيب . صمت . حسن هو الذى يجيب] .

حسن : لم يعد سوانا فى المنطقة . لابد من إعادة تجميع الرجال . منزلنا واحد من المنازل النادرة التى لم تهاجم ، الجرائد تقول إن حالة الحصار لن تستمر . لكن الرجال المشتبه فيهم ، بين الثامنة عشرة والستين ، أبعدوا عن المدينة فى مواكب عسكرية ...

الأخضر : (**مخاطبا مارجريت**) فما رأى أبيك فى هذا ؟

مارجريت : (**مفكرة**) أنه يقوم بالتنفيذ .

مصطفى : نعم ، إن المستوطنين هم الذين يقررون . لقد توصلوا فى باريس إلى أن تكون السلطة مقسمة إلى حد ما بين الميليشيا والجيش . والحاكم نفسه مشلول الحركة . من الممكن أن ننتظر أى شىء .

الأخضر : هل نستطيع أن نقدر خسائرنا ؟

مصطفى : أنا لا أرى سوى ثلاث فئات : الضحايا ، الأسرى ، الفارين . الأمر لا ينتهى أبدا . فى الجهة الأخرى من القبر ، تتكاثف الظلمة الحالكة . أنهم يحيكون بعض المؤامرات ، مع أن فترة الإنذار قد انتهت .

الأخضر : بأيديهم هم سيقضون على انتصارهم ، خوفا من العقاب .

مــارجــريت : لا تتعشموا أن تعارض باريس الجيش .

مــصطفى : نحن نعرف سلطان المستوطنين . ذات يوم سيذهبون لإرهابكم فى فرنسا .

أنهم من الآن يتحرشون بكم ، ويخادعونكم ، ويسيطرون عليكم . إنهم مرتزقتكم الذين لا تقف قوتهم عند حد .

سينقلبون ضدكم ، فى قمة العجرفة الذليلة .

مــارجــريت : (**مذعورة**) اخفضوا أصواتكم ... من مكتبه ، يسمع كل شىء .

مــصطفى : من ؟

مــارجــريت : أبى !

[مصطفى والأخضر يتبادلان النظر . عند صيحة مارجريت ، الباب يفتح، يطير حطاما تحت حذاء الكومندان ، الذى يصرعه حسن فى الحال وهو قريب منه . تنقضى لحة ، مارجريت تتردد ، ثم تتخذ مكانها بجراءة وسط المعمعة . تتخطى جسد أبيها لتقبض على الأخضر الذى يقاوم مذهولا] .

مــارجــريت : بسرعة ، لنحملهما كليهما . إن السيارة أمام الباب .

[مارجريت تحمل الأخضر ، الذى يكف عن المقاومة . يغادران المنصة يتبعهما مصطفى الذى يحمل جثة الكومندان . حسن ونجمة يظلان وحدهما] .

حــسن : (**وهو لا يزال تحت تأثير فعلته**) إنه أبوها فعلا .

نجــمــة : لا يهمنى .

حســــــن : أنت مخطئة إذ تكرهينها . هى ليست سوى أجنبية ، مجرد فتاة مغتربة ، عاطلة ، كتبت عليها حياة الثكنات ، تخنقها روح طبقتها بالقرب من أب مجرد من الشفقة . إن وحدتها ألقت بها بيننا كمن تمشى وهى نائمة . إنها تنضم إلى الشباب كما ينضم المرء إلى العدو ، سائرة فوق دمائها ، دون أن تعرف أولئك الذين تختار معسكرهم ، وقد نزعتها من عزلتها ضربة من ضربات القدر ...

نجـــمـــة : (**عابسة**) لا يهمنى .

حســــــن : ألا تشعرين بالغيرة ؟

نجـــمـــة : هيا ، أنت حمار ، بمسدسك هذا ... ألم تلاحظ ؟ أمامى ، كان الأخضر ومصطفى يبغض كل منهما صاحبه . وأمام هذه الفرنسية التأمت صداقتهما من جديد .

حســــــن : هكذا تترك غيرة الحب مكانها لإخوة السلاح .

[ظلام . ضوء . دقات جونج . جو مقهى أو بار حافل بالناس . نجمة تتكلم فى منتصف المنصة] .

نجـــمـــة : حان الوقت لأتحدث عما وقع عندما كان الأخضر يخرج من مرحلة الطفولة ، كان يبدو له عندئذ أنه خلق ليعيش فى بلد أجنبى لن أذكر اسمه ... لم تقع له كل هذه الأحداث إلا بعد أن انقضت سنوات عديدة على اختمار فكرة رحيله . كان أبوه يعيش فى مقهى ليل نهار .

والأخضر يتذكر أنه اصطحبه إلى هناك ، عندما حلت أوقات فاقة تركت الناس بلا عمل . كان العمال والفلاحون وصغار الموظفين وحتى المحامي ، لا يغادرون المقهى . كانوا يشربون قليلا أو كثيرا . وكانوا يلعبون الورق أو الدومينو . هكذا كانت تنقضي الأيام العصيبة ، كان المحامي يقرأ الجرائد ، وهو يفرك عينيه ، وكان الآخرون يطرحون رءوسهم إلى الوراء للتأمل والتفكير . وكان والد الأخضر يريد أن يستخفي عن الأنظار . كان يقول " إن الجرائد مثل عبارات السحرة ، لا يستطيع الناس جميعا حل رموزها "... وذات يوم قامت الشرطة بعدة هجمات مباغتة في الشارع ، وأسرع الجميع يلجئون إلى المقاهي والحوانيت ، والحمامات ، بل وحتى إلى المحطة ... ودخل الأخضر المقهى ...

[نجمة تغادر المنصة . العمال والفلاحون وصغار الموظفين والمحامي في وسط المنصة . في أقصى المنصة يوجد مصطفى . الأخضر يتسلل نحوه] .

الأخضر : **(الذي لمح زوج أمه ، يدمدم متذمرا)** اليوم يوجد جمهور كثير .

طهار : وبك يزداد واحدا .

الأخضر : أنا لا أبحث عنك ، يا أبي ، أنا لا أبحث إلا عن الهدوء .

مصطفى : اجلس ، أيها الرفيق ، احترم أباك قليلا .

[في هذه اللحظة ، المحامي متوقفا عن قراءة جريدته ، يطلق صرخة قصيرة] .

المحـــــامى : انتـهى الأمـر ! لقـد صـدر الحكم على رئيس الحـزب . بعشرين عاما أعمالا شاقة .

المــوظــف : (غير مكترث) هاهو الأستاذ يبكى .

المحـــــامى : ليس أنت الذى سيتحمل مهمة إمدادنا بالأخبار ...

المــوظــف : عفوا ، يا أستاذ ، ولكن طريقتك سيئة فى نقل الأخبار .

مـــصطفى : هل حكم عليه طبقا للقانون ؟ عفوا ، يا أستاذ .. كيف أدانوا الرئيس ؟

المحـــــامى : (بلهجة الذى يفهم الأمور) القانون ، والمستوطنون ... لقد أدين تماما .

الأخـــضـــر : وهاهو ذا بلا دفاع ؟

المحـــــامى : ليست هذه أول مرة . سيموت فى السجن .لا أمل ،إذن ؟

مـــصطفى : يبدو لى ، يا أستاذ ، من كلامك أننا جميعا سندان إن عاجلا أو آجلا .

المحـــــامى : آه يا بنى ، لقد فهمتنى ! إن القانون يهددنا على الدوام ، وهو يشعرنا بهذا التهديد عن طريق مثل هذه الأحكام . ومع ذلك فإن القانون لا يصيب الجماهير بتاتا . فطالما نحن معا ، سيتركنا نعيش خاضعين . أما إذا تراءى لسوء الحظ لأحد الساخطين أن ...

طـهـــــار : برافو ، يا أستاذ ، علِّمنا ! .

الأخـــضـــر : هل تعنى أن رئيس الحزب كان الوحيد الذى تمرد ، وأنه يرتكب دائما الخطأ نفسه دون أن يستطيع إقناعنا ؟ هل تعنى أننا لم نتبعه حتى النهاية ؟

المحـــــامى : نعم ، يا بنى ، أنت أيضا تفهم ، أنا أرى أنه من غير الحكمة أن يخرج المرء من شعب جائع ، جاهل مثل شعبنا ، لكى يسقط من تلقاء نفسه تحت وطأة القانون . إنكم ترون جيدا أن هذا التعس قد خذل نهائيا . إن إدانته لا تؤدى إلا إلى زيادة إرهابنا . ولا عمل لنا إلا أن نقاسى من الهجمات الفجائية دون أن يكون لنا شأن بها ..

الأخـــضــــر : برافو ، يا أستاذ ، لابد وأنك عرفت كثيرا من القضاة . إنك تتحدث عنهم بحكمة .

القــــاضى : (**فى تواضع**) منذ عشرين عاما وأنا مقيد فى سجل القضاء ...

الأخـــضــــر : أننى أفكر فى ذلك الرجل الذى أدانوه منذ قليل . هو أيضا مسجل فى سلك القضاء منذ عشرين عاما ، ولكن فى الجانب الآخر من المحكمة ... هل تفهم يا أستاذ ، هل تفهم ؟

المحـــــامى : (**تائها**) نعم ، لقد عرفت كثيرا من القضاة .

الأخـــضــــر : هل عرفتهم رجلا لرجل ؟

المحـــــامى : بالتأكيد ، فمنذ عشرين عاما واسمى مسجل ..

الأخـــضــــر : إذن فقانونهم ليس بعيد المنال ... يكفى أن يسجل المرء نفسه فى سلك القضاء . إنك تغرينى بأن أفعل ذلك .

المحـــــامى : (**مغيظا**) لقد فات الآوان ، أيها الشاب ، لكى تتم دراستك ...

الأخضر : اقتربوا ، اقتربوا جميعا ! الجميع يستطيعون هنا أن يسجلوا أسماءهم بسلك القضاء . ولكن ذلك سيكون فى الجانب الآخر من المحكمة لأن القانون سيغير معسكره . يا أستاذ ، إن الحكم عليك سيكون خفيفا ...

المحامى : الله فى عونكم يا أبنائى . سأذهب لأرى إذا كانت الجريدة قد وصلت .

(المحامى يخرج ، تشيعه الفرحة العامة) .

مصطفى : إن الأستاذ لا يحب حماستنا .

الموظف : إنه رجل حر ، ولكن لديه بعض الهموم .

عامل : إننى أفضل رأسى ، رأس العبد .

الأخضر : **(مخاطبا مصطفى)** حان الوقت لكى نبدأ ...

مصطفى : **(ساحبا مفكرة من جيبه)** فتحت الجلسة .

[فلاحون وعمال يقتربون فى صمت . طهار يظل بمفرده عند منضدة الشراب]

الأخضر : **(مخاطبا طهار)** سنبدأ عندما تنصرف أنت .

طهار : **(مخاطبا صاحب المقهى)** معهم ، ستصبح ثريا .

[طهار يخرج ، تتبعه حفنة من صغار الموظفين . الاجتماع يبدأ بجلبة طفيفة . ثم يسمع جزء من البيان الذى يبدأ بصوت خفيض ، جاذبا الانتباه]

مصطفى : ... زنزانتهم ليست زنزانتنا : إنها لن تكفى لعزل مساجيننا . لابد من تنظيم الحجرات المشتركة ، رغم وجود المحكوم عليهم بمقتضى القانون العام ، وألا يقبض

علينا مباغتة ، وإنما يجب أن نتسلل إلى السجون ، بخطة تحرير شامل ، تضم حتى نصوص القانون العام ، لأنه ليس لنا أن نحكم على الذين فى الطرف الآخـــر من سلاسلنا .

[الأضـواء تنطفئ واحـدا واحـدا ، بينمـا المجـاهدون ينهضون ويذهبون كل إلى وجهته . الظلمة تقع على ظلى الأخضر ومصطفى المعروضين على الشاشة . قضبان السجن الحربى فى نقطة كبيرة . بالداخل ، الأخضر ومصطفى وحسن مجتمعون فى الزنزانة نفسـها . المشاهدون يتعرفون على وجوه المسجونين الثلاثة ولن يروهم طوال المشهد ، لكنهم سيسمعون أصواتهم الواضحة التى ينقلها مكبر للصوت . أمام القضبان ، فى لقطة كبيرة ، وعلى جانبى الشارع الذى يفضى إلى كوة الزنزانة ، يقف كورس الجمهور فى صفين يطغى كل منهما على الآخر . شخصيات الكورس ليست رمزية فيما عدا مارجريت ، الباريسية ، التى تتميز عن المجموعة بأناقتها ، وخطواتها ذهابا وإيابا التى تتسم بالكآبة وسط الشارع ، لأنها تنتظر وحدها أخبارا عن الأخضر ، بينما الجمهور منصرف إلى مشاغله ، يتنزه أو ينعس ، كل هذا فى نوع من التركيز الفكرى اللازم لسمـاع الثـلاثى المسجون] .

حـســـــن : لن يطلقوا عليك النار . مجرد مسرحية لإرغامك على الكلام .

الأخــضــر : أخــبــرونى بــأن هـــذا سـيكون غـدا ، فى الســاعـــة
الواحــدة . كان يبدو أنهم ينتظرون إجابتى .
مــصطفى : هل كانت قاسية معرفة هذا الخبر ؟ أكثر قسوة من
التعذيب ؟
الأخــضــر : بمجرد أن سمع الحكم .
لم يعد الزمان سوى ذكرى إعدام مقبل .
من تلقاء نفسها توقفت الأسلحة .
فى خرير شلال تحت الأرض .
لا تطفو عليه سوى أيام الشتاء الأخيرة .
إنها ذكريات مدرسية ...
مــصطفى : كنا معا ...
الأخــضــر : ... فى الشتــاء نفســه ، مـصطفى وأنـا ، خــالطــين
جمــاعتينا المتنافســتين ، كدليلين يقظين ، عند مغادرة
المدرسة التى كنا أيضا أول من يبلغها .
مــصطفى : كنت أفكر فى ذلك ، كنت أفكر فى ذلك حتى هذا الصباح .
ه الآن [illegible] ركت : لم [illegible] أن
نكتشف لأنفسنا ذاكرة مشتركة ، قبل أن نقدر عمقها
المعادل حتى لا يخطر ببالنا أن أحدنا سيكون هنا دائما .
الأخــضــر : لذلك ، وأنا أفكر فى أيام الشتاء ،
أشركتك فى السقطة القادمة .
عند الخروج من المدرسة ، زمن التدافع بالأيدى
عندئذ كنا نجهل الحكم الصادر من الأعداء

أما الآن
فإننى أشعر بدمائى تتدفق
لرؤية رجال لم يتغيروا . منذ الطفولة ،
وأنا أنظر إليهم على أنهم أعداء . كانت الكراهية تخنقنى
منذ ذلك الحين ، الكراهية والحاجة
لأن أصادفهم يوما وجها لوجه
لكى أعلم إذا كانوا حقا قد هزمونا .

مصطفى : منذ الطفولة ونحن نعلم أنه يجب أن نهزمهم . ومنذ استطعنا أن نجرى أخذنا النبال ولذنا بالأدغال ولم يُجدهم شيئا أن يعلموا بضرباتنا قبل وقوعها . ولم يغنهم شيئا أن نهلك نحن بدلا منهم ... إن قبرنا سوف يخصص لهم أبدا . سيتساقطون مثل الذباب بتأثير غيابنا فقط . كيف يمكنهم الحياة دوننا ؟

[قسما الكورس يرددان كل فى دوره]

" ... كيف يمكنهم الحياة دوننا ؟ بتأثير غيابنا فقط سيتساقطون مثل الذباب. كيف يمكنهم الحياة دوننا ؟ "

[وهكذا فإن صوت السجين انحرف متجها إلى كورس الجمهور الذى يردده فى صدى ، مشيرا فى نهاية هذه الفقرة إلى السجناء وجلاديهم فى الوقت نفسه ، بينما نهاية الفقرة كانت تتضمن معنى واحدا فى فم مصطفى ولا تشير إلا إلى الجلادين . صوت الأخضر يلى صوت الكورس على الفور]

الأخضر : ترى هل قرب الموت يجعل غضبنا أكثر هولا ،
ترانا نعيش أحلام طفولتنا الحربية
أهي الحرب يا ترى أم هو حلم ؟
منذ مائة عام وهم يجردوننا من السلاح .
لا يكاد يبقى سوى ما نذهب به إلى الصيد ...

قسما الكورس : **(وهما يرددان نهاية هذه الفقرة كل فى دوره)** – " لا يكاد يبقى سوى ما نذهب به إلى الصيد ... منذ قرن وهم يجردوننا من السلاح . أهى الحرب يا ترى أم هو حلم ؟ "

[الصمت يحل ، وصوت حسن يعود فى هدوء]

حسن : **(فى دمدمة)** ألا تستطيع أن تنام قليلا ؟

مصطفى : النعاس لم يعد من طبيعة هذا العالم
بالنسبة لمن سيرى الفجر العارى تماما
كعاشق يتحدى الليل سباقا ...

قسما الكورس : **(وهما يرددان كل فى دوره)** كعاشق يتحدى الليل سباقا... بالنسبة لمن سيرى الفجر العارى تماما ، النعاس لم يعد من طبيعة هذا العالم .

حسن : **(فى صوت واحد مع مصطفى ، فى ثنائى يعيد جمع قسمى الكورس الذى يلازم مارجريت)**
ونحن رفاقه فى الزنزانة
نسهر على نفَس الأخضر المتعجل دائما ،
نفس الأخضر الذى يعوزه الزمان والمكان ،

ها نحن نتعثر أمام نظرته ،
مبهورين فى خلية المعدن المتأجج الذى يخترقه
لحظة الارتقاء
حيث رأسه يجتذب الصاعقة
ويجعل البنادق تخر وتنحنى

[عند نهاية هذا البيت الأخير ، صوتا حسن ومصطفى المختلطان يشكلان ثنائيا يعيد الجمع بين قسمى الكورس حول مارجريت . الكورس كله يردد عندئذ الفقرة كلها ، مخاطبا مارجريت الصامتة . ثم يقوم الكورس بسرعة بغزو السجن ويظل مختفيا عن الأنظار بينما مارجريت باقية وحدها فى الشارع . ويعود صوت الأخضر من جديد]

الأخضر : شعورى يزداد بالظلم الشامل
الآن وقد أصبحت أقل كلمة
تزن أثقل من الدمعة
أرى بلدى ، وأرى أنه فقير
أرى أنه ملىء برجال هوت رءوسهم
وهؤلاء الرجال أراهم واحدا واحدا فى رأسى ،
لأنهم أمامنا ، والوقت ينقصنا للسير وراءهم .

[الكورس كله وهو لا يزال خافيا عن الأنظار ، يردد هذا البيت الأخير :] "لأنهم أمامنا ، والوقت ينقصنا للسير وراءهم " !

[بعد فترة يعود صوت الأخضر من جديد]

الأخضــر : فى كل عام ، لدى كل موجة عميقة
لأشباحنا المطعونة عبثا
تكون الغطسة نفسها فى الصخرة
يكون هلاك جديد
دائما ما يطول الحزن عليه
ولكن قلما تنوح أرواحنا
لأننا نمسك الزمن جريحا بين أسناننا
كمثل الكثيرين من المفكرين الشبان
المغمورين فى المعابد .
لأنه من وراء الأنصاب تصلنا
ألوان من العذاب خطيرة
تعكر صفو موتنا فى ينبوعه .

[فى هذه اللحظة تهل مجموعة من الجنود وتنسل داخل السجن . يخرجون منه حالا ، قابضين على ثلاثة مجهولين يعدمون رميا بالرصاص بطريقة رمزية فى الشارع على ضوء كشاف يدل على بزوغ النهار . ثم يغادر الجنود المنصة . ويخرج الكورس من السجن لكى يدفن ، بالحركات ، الجثث الثلاث . الكورس ، وهو يترنم بالدعاء للموتى ، ينتظم فى صفين على جانبى الشارع كسابق عهده ، حول مارجريت ، التى لا تزال فى الانتظار . فى أثناء هذا الوقت يكون الكشاف قد كف

عن إرسال ضوئه على المعدمين الثلاثة لكى يعلن حلول الفجر للأخضر ، الذى يبقى الآن وحيدا]

الأخضـــر : لقد حان الوقت . فليتركونى لأرى النهار
حتى لو لم يكن هناك إلا الوقت لطرد الأفكار السوداء ،
هذا هو الوقت الذى لا يكون للمرء رأس فيه . غزو
مفاجئ ، كل ما كنت أسعى إليه كان يسعى إلىَّ !
ها نحن تحت الريح المضادة ... محكومون بغليل لا يشفى .

قسما الكورس : (يرددان كل فى دوره): هانحن تحت الريح المضادة ... محكومون بغليل لا يشفى .

[ضابطان يدخلان السجن . من المنصة نسمعهما وهما يعذبان الأخضر]

الضابط الأول : سينفذ فيك حكم الإعدام وأنت فى زنزانتك .

[صراخ الأخضر . الكشاف الهائم يمسح جدران السجن ، بينما قسما الكورس يرددان بطريقة حزينة]

الكـــورس : " وأنت فى زنزانتك سينفذ فيك حكم الإعدام ، سينفذ فيك حكم الإعدام وأنت فى زنزانتك "

[بعد صمت طويل ، نسمع الضباط يعاودون الاستجواب]

الضابط الأول : انظر إليه . ما أغرب نظراته ! ... أنا لم أر هذا إطلاقا .

الضابط الثانى : (مخاطبا الأخضر) لاحظ جيدا أننا نفعل هذا كمجرد شكليات . إن الرئيس ينوى أن يعدمك . هيا ، تكلم !

الأخضـــر : (صارخا فى مكبر الصوت) أهذا هو إعدامكم ؟ أهذا هو ؟ عليك أنت أن تتكلم . هيا تكلم !

[رئيس الشرطة يدخل السجن بدوره . إنه ضابط بلا زى رسمى . عند دخوله يسمع الأخضر وهو يصرخ بأعلى عقيرته . صمت . ثم نسمع نهاية الاستجواب]

رئيس الشرطة : إذن ، ألم تنتهيا منه بعد ؟

الضابط الأول : يبدو أنه فقد صوابه . إن أعمال التعذيب فى شخص على شاكلته ، مع احترامى لسيادتك ، لا تفيد شيئا . إنهم متعودون على ذلك .

الـرئـيـس : إنه مقضى عليه بالهلاك . سيظل يشاهد رؤى طول حياته . سوف يصرخ كالممسوس . فليعد إلى أصدقائه . فليعد إلى أمه . عندما يرونه سيفهمون .

[الأخضر يغادر الزنزانة دون حرس . يترنح فى الشارع الغاص بالناس ، بين قسمى الكورس ، أمام الشبح الرمزى الذى يمثل العدو : إنها مارجريت التى يرهقها الكورس المتجمع بالتهكم والسخرية]

الـكـورس (وهو يشير إلى مارجريت)

هاهى الباريسية
روح المدينة المفتوحة
ابنة الجلاد
باقة المعدومين الشنيعة
هاهى الباريسية
الأليفة البسيطة الساذجة
الجاهلة

القاسـية
ابنة الجلاد
إنها تأخرت ، تأخرت كثيرا .
فى اللحاق بمعسكر الضحايا .
هاهى الباريسية

[الأخضـر يمسك مارجريت من ذراعها . ولما كان الكورس يواصل دمدمته فإن الأخضر يرد عليه ، وهو يسحب مارجريت]

الأخـضـر : **(مشيرا إلى مارجريت)**
لقد تأخرت ، لقد تأخرت كثيرا
فى اللحاق بمعسكر الضحايا
أبدا لن أحبها أبدا
لكننى أسفت عليها دائما

[المظهر العادى للشارع . باعة . نسوة محجبات يتسوقن . الأخضر ، زائغ النظرة . البائع أمام . شجرة البرتقال]

السـيـدة : هاهو الأخضر ! بلحمه وعظمه . ويقولون إنه مات .

البـائـع : برتقال حلو
برتقال مالح
برتقال نصف حلو ونصف مالح
بالواحدة ، بالكيلو . برتقال !

السـيـدة : برتقالتين .. يا رجل ! زنهما ! أنت تفضل البيع بالواحدة .

البـــــائـع : (**مراوغا**) إذا كان الأخضر هو الذى يدفع ...

الأخــضــــر : (**الذى سمع من بعد غير قليل**) . إيه ؟ ماذا ؟

الســـيـــدة : (**مخاطبة البائع**) خذ نقودك .

الأخــضــــر : (**وقد وصل قريبا من العربة**) ماذا تريدان منى ؟

الســـيـــدة : (**بصوت خفيض**) اتبعنى ، يا الأخضر ، سأعيد إليك صوابك .

الأخــضــــر : (**وهو مازال شاردا**) لم أسمع .

الســـيـــدة : (وهى تمسك الأخضر من يده) هيا بنا .

[يبتعدان]

الســـيـــدة : من أنا فى رأيك ؟

الأخــضــــر : أختى ، أو أخت شخص آخر ، لا يهم .

الســـيـــدة : ماذا حدث لنجمة ؟

الأخــضــــر : (**وعيناه مرفوعتان إلى السماء**) فيما مضى كانت الدب الأكبر . بعد ذلك نمت . كيف يمكن أن نميزه فى وضح النهار ؟

الســـيـــدة : (**فى حزن**) هاأنت ذا قد تغيرت كثيرا ... (**على حدة**) كنت أفضل أن أجلس على نصبه ، بدل أن أراه يتعثر كالأعمى أو كالمجنون . اللهم أنزل الليل عليه ...

[جميع الأضواء تنطفئ لحظة . عندما تضاء من جديد ، يتضح أن المرأة المتشحة هى " نجمة " . الأخضر اختفى فى الكواليس . نجمة هذه المرة فى صحبة مارجريت وطهار]

طـهـــــــار : (**فى أشد حالات السكر**) اليمام يؤكل صغيرا ونيئا .

نجـــمــــة : أيها الثعلب العجوز ذو السحنة الكريهة .

لست أدرى ما الذى يمنعنى من تحطيم أسنانك .

لا شىء سوى ضربة بسوارى .

تعالى ، يا مارجريت ، هذا الرجل لا يعنينى فى شىء ، مع أنه سبب شقائى . لا تردى عليه التحية .

[بينما المرأتان الشابتان تنسحبان ، يظهر الأخضر الذى يذهب رأسا إلى نجمة]

نجـــمــــة : (**مرتعدة**) تعالى ، يا مارجريت ! لنرحل !

الأخـــضـــر : عفوا ، يا أختاه ، إلى أين تذهبين ؟

(**وهى تحول عينيها**) إنه مجنون ! لا أريد أن أراه .

[فى هذه اللحظة ، طهار الذى كان مستخفيا فى أقصى المسرح ، يقترب خلسة]

طـهـــــــار : (**منفجرا**) يا للسماء ! لقد أطلقوا الأفعى !

[طهار ينقض على الأخضر ويطعنه . المرأتان والقاتل يهربون فى اتجاهات مضادة . الأخضر يترنح متجها إلى شجرة البرتقال ويظل متعلقا بها حتى لا ينهار . الجمهور ينتشر حوله]

رجـــــــــل : (**مشفقا**) شقى آخر يولى ...

الأخـــضـــر : (**وهو لا يزال متعلقا بشجرة البرتقال**) إيه يا رجل ! أتبكى لأن الثورة تحطمت ؟ لا تبك .

رجل أخـــر : أهلى جميعا ماتوا محروقين . المنزل أصبح رمادا . هذا العام يبدأ وينتهى بالشر ...

الأخـضـر : (**وهو يكافح الهذيان**) سننام معا ، عندما تتركنى الشجرة أسقط .

سـيـدة : كان لى ولد اسمه فقط بغيض على ...

اسم الولد التائه ، وقد ارتد حتى عضوى الحساس وأنا فتاة ، هذا الاسم يزداد ثقله فى أحشائى .

أكثر من الوقت الذى كان ينام فيه فى مأواه

قبل أن يفصل عن الكرة الجسدية ،

مضطرا إلى النزول إلى الأرض

فى هذه الصحراء التى يسد فيها رمقه من فمى ،

وإننى لأبغض حتى الاسم الذى يطلقونه عليه

لينزعوه مرة أخرى من عضوى الحساس ،

وإننى لم أعد أرصد سباق السنين

برغبة السعادة القديمة

أنا التى فقدت ثلاثة فصول من أربعة

لكى تنجب وحشا هاربا .

[الجمهور يشكل كورسا ينتظم على جانبى الشارع ، الرجال والنساء يقفون فى مواجهة بعضهم البعض ليشكلوا قسمى الكورس . النساء فقط يرددن فى صوت واحد الفقرة السابقة وقد قمن بالصراخ والعويل الذى تقوم به الأمهات . السيدة التى كانت قد تحدثت إلى الأخضر تواصل سرد أسرارها التى ما زال يرددها فى صدى حتى الآن كورس النساء]

السيدة نفسها : (**مخاطبة الأخضر**) وما إن شب عن طوقه حتى رحل إلى فرنسا ، ولكننى أعلم أنه عاد ... أنه لا يقوم بزيارتى أبدا ، وهو يصر على أن يعيش فى الشارع مثل قاطع الطريق .

[هنا صف النساء لا يكرر سوى نهاية الفقرة ، لكى يوسع مدلولها الأصلى . كل سيدة تخاطب الرجل الذى يواجهها ، وتشركه فى اللوم الذى وُجه منذ قليل إلى الأخضر]

كورس النساء : (**مخاطبات رفاقهن من الرجال**) ... إنكم لا تقومون بزيارتنا أبدا وتصرون على الحياة فى الشارع مثل قطاع الطرق .

[الأخضر ، وهو مازال متعلقا بالشجرة ، يرد على اللوم الذى وجه إليه بمفرده من قبل]

الأخضر : انصرفى أيتها المرأة التعسة ، لديك كل الوقت الكافى للبكاء .
الزوج والابن بالنسبة لك ليسا سوى شخص واحد :
لقد مات هذا وذاك ،
قبل أن تنشق الأرض لسقوطك ،
لأنه مازال هناك زوج أم
لكى ينغِّص عليك ترملك
ويلاحق يتيمك .

السيدة : (**وهى تقترب من الأخضر**) ماذا تقول ، يا ولدى ، ماذا تقول ؟ أمن الممكن أن يكون سرى هو سرك أيضا ؟ أم ليس الأمر سوى هذيان وهواجس ؟

الأخـــضـــر : عبثا أتحدث عن نفسى فى الماضى ...

الســيــدة : (وهى تقترب أكثر) هل الأخضر مات ؟ لأن الحداد هو ميزتى ، وأنا أوجه عند كل احتضار هذا السؤال القاسى .

الأخـــضـــر : أبدا لن أستطيع أن أطمئنك .

أنا آخر الفلاحين

لست أدرى ما الذى يقيدنى

إلى شجرتى المضحى بها

أهو الرجل الذى كنته

أم الخنجر الذى يحل محلى

[هنا قسم الذكور من الكورس يخاطب صف النساء مكررا بداية الفقرة السابقة]

كورس الرجال : (مخاطبا النساء)

أبدا لن نستطيع أن نطمئنكن

نحن آخر الفلاحين

لا ندرى ما الذى يقيدنا

إلى أشجارنا المضحى بها ...

[الأخضر يكرر هنا كل الفقرة التى يختمها إلى أمه التى تثبت شخصيتها الآن : المرأة التى اقتربت منه]

الأخـــضـــر : أبدا لن أستطيع أن أطمئنك

أنا آخر الفلاحين

لا أدرى ما الذى يقيدنى

إلى شجرتى المضحى بها
أهو الرجل الذى كنته
أم الخنجر الذى يحل محلى
ماذا عساها تجنى هنا أرملة أبى
حين تعلم أننى قتلت
بيد الزوج الثانى الذى لم تختره ؟
هل رأيت الأفاعى التى تسعى إلى اللذة
وهى تعض بعضها البعض وسط التبن ؟
هكذا ذاكرتى
تتحرك خلال القتل والمنفى
وهذا الخنجر الذى يدفعنى إلى الشجرة ،
هو الانبهار الذى يستهوى العقرب الشاب ؛
أنا المطوق فى دغل منبتى ، لا أدين بشىء لزوج أمى .
ولا حتى بالاغتيال ، ولا حتى بمنة القربان
لأنه أبعد من أن يكون إبراهيم الخليل ، وأنا لست سوى قط
علقته بومة فوق أوهى غصن
لا أنتظر إلا أن أسقط منه لكى أعمى الطائر النهارى
فى ورق الشجر الذى يظن أننى غاف فيه
[قرع طبلة . الجمهور الهائج يخلى المسرح . لا يبقى سوى الأخضر الذى لا يزال متعلقا]

صوت الكورس : (متشتتا من بعيد)
أيها المجاهدون من حزب الشعب !

لا تغادروا ملاجئكم !
ساعة المعركة لا تزال بعيدة .
أيها المجاهدون من حزب الشعب !
[مصطفى وحسن يدخلان المسرح وهما يتحادثان]

مصطفى : فلنرحل . فلننسحب إلى الجبال .

حسن : الفلاحون سيقدمون لنا المأوى .

مصطفى : هيا نعد تشكيل قواتنا .

حسن : سنغدو أكثر إصرارا وعنفا .

مصطفى : (**متوقفا عن الحركة**) . توقف ... أليس هذا هو الأخضر ؟
[يشير إلى الشجرة]

حسن : إنه هو ، دون أدنى شك ، مصاب مرة أخرى !

الأخضر : سلام عليكم ، سلام ! لا ترحلا دون كلمة واحدة ، كمن يتركون ميتا .
... على الأقل اتركا لى تبغا .

مصطفى : لا يمكنك أن تظل على هذا الوضع . (**يسير نحو الشجرة ، يتبعه حسن**) سنقوم بحملك .

الأخضر : (**بلهجة عنيفة**) ابقيا حيث أنتما ! (**صوته ينهار . يستأنف بصعوبة ، دون أن يخفض نبرته**) لم أعد أشعر بالخنجر . إننى أكاد أتوهم أنه مغروس فى الشجرة . إننى كالدرع أرن فاقد الإحساس ، منذ أن أخذنى الموت من كتفى ، فى هدهدته التى لا ترجى . أبقيا حيث أنتما ! إذا أردتما إخراج الخنجر فلابد أن أدير لكما ظهرى ،

ولابد من ترك هذه الشجرة ، فى حين أننى أفنى لأحميها من الجليد .

مـــصطفى : أنت تقف على قدميك ، فى هــذا الشـنق الإرادى ، لكنك ترفض أن تتقـدم خطوة إلى الأمام !

الأخـــضـــر : سـل الشجـرة . سلها إذا كـان بوسعـها أن تســير ، أو إذا كان يجب علىَّ أن أبدأ السير .

مـــصطفى : إذن سنقوم بحملك .

الأخـــضـــر : لا تُحمل سوى الجثث . اذهبا واتركا لى تبغا ! ...

[قرع الطبول]

[صـوت الكورس من بعيـد ! أيهـا المجـاهدون من حـزب الشعب ! ...]

[مصطفى وحسن ينصرفان عن الصديق المحتضر]

حـــــــسـن : فلنتركه . عبثا يناضل مع جثته . كيف يستطيع أن يتبعنا ؟ أجل ، فلنتـركه . إننا فى نظره لسنا أكـثـر إقناعـا من الأشجار ، أنه يناضل مع جثته .

[حسن ومـصطفى يتـفـرسـان طويلا فى وجـه الأخـضـر الكئيب ، الذى يقطـع الصـمت فـجـأة ، فى اللحظة التى يغـادر فيـها حسـن ومصطـفى المسـرح فى بـطء ، كما لو كانا يشيعان جنازة غير حقيقية]

الأخـــضـــر : وداعا ، أيها الرفاق ، ما أفظع الشباب الذى عشناه !

[هنا تدخل أم مصطفى ، باحثة عن ولدها الذى رحل إلى المنفى . تتلمس طريقـهـا أمـام الشـجـرة دون أن ترى

الأخضر . ترتدى القميص الأزرق الخاص بمستشفى الأمراض العقلية . شعرها الذى لا يكاد يخطه البياض منتصب، فوق رأسها . نظرتها الزائغة لا تتوقف عند شيء . هيكلها المتكسر وحركات المها تخلو تماما من علامات الأنوثة . صوت الطيور المشئومة يتخلل هذيانها فى بعض الأحيان . تنطق كلمة " مصطفى " ! بصوت مختلف دائما ، وكأنها تستطيع من خلال هذا الاسم الذى تنطق به فى عبارة سحرية ، أن تمسك صورة ولدها المتبددة]

الأم : مصطفى ! مصطفى ! **(صياح الطيور)** مصطفى !

الأخضر : إنه لا يزال هنا . ينتظرنى فى هذا العالم ، وأنا أنتظره فى العالم الآخر . إننا نقضى حياتنا يودع كل منا صاحبه .

الأم : **(وهى لا تزال فى حالة تنويم مغناطيسى)** مصطفى ! مصطفى ! **(صياح الطيور)**

الأخضر : **(مرددا كالصدى)** مصطفى !

[صياح الطيور المشئومة ، ينتهى بتغريد الربيع . المجنونة تجمع حواسها مطأطأة الرأس ، ثم يرتفع صوتها ، خفيفا ممزقا ، فيردده كورس النائحات الذى يستخفى عن الأنظار]

الأم : **(وهى تجلس القرفصاء أمام شجرة البرتقال التى تسند الأخضر)**

فوق مقعد المستشفى الكبير

أنا المجنونة الهاربة
أرملة مؤجلة ، وأم فى المحجر الصحى .

[صياح الطيور يصدره كورس النائحات ، الذى يكرر الفقرة السابقة ، ثم يستأنف الحوار بين الأخضر الذى يحتضر وأم مصطفى]

الأم : (وهى تتابع سيرها المتعثر حول الأخضر)
تركت اللبؤات يكبرن
دون أن أستطيع تمشيط شعورهن
الطيور نبأتنى بذلك !
لابد أنهم ذبحوا الولد
وقصوا للبنات شعورهن
فى ذكرى الأم المخبولة
والطيور وهى تقفز ، تسخر
تسخر منى ، تسخر
من الابن الذى ينتظرنى فوق المقعد
فوق مقعد المستشفى الكبير .

الأخضر : إنه كان ينتظرنى أيضا
فى المكان الذى تهذى فيه أمه
دون مراعاة لمشنقتى الخضراء
ودون كلمة ، وكذلك هجرنى
ليحتضن أشجارا أخرى
هكذا نجومنا تتتابع

نساء ورجالا ، أجسادا ومتاعا .

لا شيء يقاوم الرحيل

وأم شخص آخر أصبحت أمى

فى هذا الهجران الثلاثى المنحوس !

[كورس الرجال المستخفى عن الأنظار يكرر من بعيد]

الـــكـــورس : الليل يهبط ، وعالمنا كله ينحنى

على نافذة العدم !

فلنمسك عن قذف المجنونة بالحجر

هى التى نهضت لتغلق النافذة

ولذلك فإن عينيها تالفتان .

الأم : (وهى تسقط وتنهض فى فرارها)

الليل هو سبب سقوطى

والطيور تسخر

[مكبر الصوت يصيح معلنا : " صدمة كهربائية ! صدمة كهربائية ! صدمة كهربائية ! بينما تضىء الشجرة بلمحة من صاعقة ، وفى الوقت نفسه يسمع صياح الطيور المشئومة]

تسخر منى ، تسخر ...

[بينما أم مصطفى تقفز إلى خارج المسرح ، الكورس كله يردد]

الـــكـــورس : هكذا نجومنا تتتابع

رجالا ونساء ، أجسادا ومتاعا .

لا شيء يقاوم الرحيل

[الريح تأخذ فى الهبوب ، بينما الأخضر يتشبث بالشجرة ، فى محاولة أخيرة]

الأخـــضـــر : دون مراعاة لمشنقتى الخضراء

فيض من الرجال ، وفيض من النساء قد مروا . موكب حزين فيه الموت هو الذى يسهر ويتابع الغائبين

[الضوء ينطفئ . الريح تهب أشد قوة . إنها ريح الموت . البائع وعربته يدخلان المسرح ، وقد سلط عليهما ضوء خافت . الأخضر والشجرة دخلا فى الظلام]

الأخـــضـــر : كل العقوبات عقوبات قصوى

بالنسبة لمن يبلغ المركز ،

مركز القدر .

هنا هبت ريح تلخصنى ، ولسانى الذى فسد أخيرا مع النباتات المائية سيغذى الفضاء المترامى .

هنا يجب أن نتقيأ كل شيء

الآلام ، الهموم ، الأوهام ، والعلوم

وكمثل المحيط يجب علىَّ أن ألفظ كل شيء

دون أن أحتفظ بلؤلؤة ولا جثة

ولابد لى من أن أنتقل إلى الاعترافات

إذا أردت أن أرحل إلى الخواء

إلى الطرف الآخر من المصير

حيث لا يدخل قناع مأساة

ولا جمهور ولا عابر سبيل ،
إلى قلب الارتفاعات العفيفة الطاهرة
حيث القبلة تفيض فى نجمة
حيث عرف الطائر يبدأ فى عقبه
حيث العلم يكون بارقة مخلصة
والحب ليلة واحدة بلا ذكرى .

[ظلام . ضوء . دقات جونج متصلة . البائع نائم تحت الجدار . الأخضر مستند إلى الشجرة]

الأخضر : إيه أيها النائم !

البائع : (**دون أن يرفع رأسه**) استمر فى الكلام يا ولدى . أنا لا أعتقد كثيرا فى الأشباح . بوسعك أن تختفى وراء الأشجار . لقد تعديت سن الخوف .

الأخضر : (**من بين أسنانه**)

دائما فى لحظات الاعتراف يبدو المسرح خاليا . ليكن . أنا وحدى سأجمع إلى الزنزانة . من بين جميع الغائبين الذين لا يشفع لهم عندى شىء ، واحد فقط لا يزال يثقلنى إنه أبى الذى حملوا جثته فى ملاءة بينما كنت أنتظر منه خاتمة حكاية وحلم مختلطين .

ذات يوم كان قد غار فى الخمارات ، فى صحبة بعض السكيرين والقتلة . كانوا جميعا يبحثون عن أجنبية بارعة الجمال رفيعة الثقافة ، على درجة من الجمال والتحفظ حتى إن أصدقاء والدى تطاحنوا حتى الفجر

ليمهدوا لأنفسهم طريقا بين الجمهور ويلحقوا بها ، فى الفندق الرائع الذى كان يستقبلها فيه عشيقها . كان الغيظ والحنق يأكلان والدى ، وهو يقتفى أثر المرأة التى كانوا يتبعونها باحترام فى الأفراح ... فى ذلك اليوم ، أصيب إصابة بالغة فى وجهه من موسى ألقاه عليه رجل عجوز من إحدى النوافذ، بينما كان يترقب الغانية غير المهتمة ، وكان يلقى فى لحى أصدقائه سيلا من الدماء الكثيفة المتقدة . وأنا أيضا ، لم أستطع أن أمنع نفسى من إطلاق الصراخ الفظيع ، ليس إلا لأخفف عن نفسى وطأة عار أبى وأهوائه التى لا نهاية لها لأننى كنت حديث الولادة ، وكنت أصرخ صباح مساء ، كأننى أشير إلى الرجل الخسيس الذى كان يأخذنى بين ذراعيه لكى يعرضنى أمام مثار غيظه وحقده ... تلك الأجنبية التى كانت لا تنفك عن الظهور فى نافذتها فى الساعات المتأخرة التى كنت أصرخ فيها من النعاس ، ليظهر أمامها عاطفة الأبوة ... وأخيرا ، نزلت بخطوة سريعة ، الأجنبية نفسها ، بوجهها العكر ، وحركاتها التى كان الجمهور يرقبها كما يرقب أحد الطقوس الدينية ، المرأة ذات العطر المجهول التى أحاطتنى بذراعيها ، بينما أنا أستحلب أثقل أثدائها وأجملها (**كان يبدو لى أن لها أثداء كثيرة ، ما دامت أمى المسكينة لم يكن لها سوى اثنين)** .

وبينما أبى المتسمر أمام الأجنبية التى كانت تهدهدنى وهى تبتسم ، وأناس آخرون كانوا يتوقفون عند هذه اللوحة الغريبة ، كان أبى يغيب فى صمت يملؤنى تأنيبا وغيرة ، أنا ابن السنوات الست الذى مسته العاطفة الأبوية إلى هذا الحد الخطير ، أنا الذى كان أعنف غريم لوالده بينما لم تكن أسنانى قد اكتملت ، أنا الذى لم يسلم أبدا بأن الأجنبية قد اختفت وأن أبى قد حمل فى غطائه ، فى الوقت الذى كنت ألعب فيه مع نجمة فى الشارع ، نجمة ابنة الأجنبية التى كان أبى قد اختطفها .

[على أثر هذه الكلمة ينهار الأخضر أمام شجرة البرتقال التى أصابتها الصاعقة .الأضواء تنار من جديد ." على " ، الذى تلاحقه نجمة ، يتسلق شجرة البرتقال . دقات متصلة من الجونج . جثة الأخضر تختفى شيئا فشيئا تحت سحابة من الأوراق الميتة . " على " جالس مباعدا بين ساقيه فوق قمة شجرة البرتقال . يقوم بقص غصن ذى شعب ليصنع منه نبلة]

نجـــمـــة : انزل من عندك ! انزل !
هيا ، انزل . وأعطنى هذا الخنجر

عـــلــــى : إنه خنجر أبى ... إنه خنجرى .

نجـــمـــة : وجيوبك المحشوة بالبرتقال المر ! ألق بهذا . ألم أقل لك مائة مرة إن هذا البرتقال مسمم ؟ هيا ، انزل .

[على لا ينزل . يخرج برتقالا من جيوبه ، يضعه فى نبلته ، ويصوب جهة الجمهور ، وابل من البرتقال فى صالة المسرح . الستار يسدل مخرما من أثر ضربات النبلة ، بينما صوت الكورس يدمدم من بعيد : " أيها المجاهدون من حزب الشعب . لا تغادروا مخابئكم " ظلام . ضوء دقات جونج متصلة] .

* * *